
المجلس الأعلى للثقافة
الصوت المعدني
خالد السروجي

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

الصوت المعدنى

« أقاصيص »

خالد السروجى



إهــــــداء

إلى أمي : نبيلة

إلى أبي : أحمد السيد

إلى أحبائي : لمياء ونجلاء ومحمد وياسمين وأحمد

عــرفانــا من الجــزء إلى الكـــــل .

خـالـد

الحنان السرى

لا أعرف منذ متى بالضبط بدأت أراقبها .. ولكنها سنوات لم أمل فيها مراقبتها . شباكى يعلو بقليل شباك غرفتها القريبة جدا .. بشكل يجعلها مكشوفة بكاملها تقريبا لعينى . لدرجة الإحساس بالمعايشة لشدة القرب ووضوح الرؤية .. سنوات طويلة مضت منذ غادرت البنات .. البنت الواحدة إثر الأخرى ، وغادر الأب الحياة بعد فترة قصيرة من مغادرة آخر بنت .. وفى المساء تغلق باب غرفتها بالمفتاح . ثم تفتح إحدى ضلف دولابها المغلق أيضا بالمفتاح ، وتتحاشى بإصرار غريب النظر فى المرآه ، وتبدأ نشاطها اليومى ، أولا بإفراغ محتويات الكيس البلاستيكى الكبير ، ثم بفتح العلبة المعدنية الصدئة ، وتبدأ عملها وقد اكتسى وجهها بحنان غريب : ملابس صغيرة الحجم جدا . تنهمك فى تطريزها . أبتسم دائما

وأنا أستمع إلى الطرقات العنيفة على باب غرفتها وأنا أتوقع سلوكها الآلي في هذه الحالة .. الارتباك .. واحمرار الوجه .. ثم الإسراع بإعادة المحتويات إلى الكيس والعلبة ووضعها بعجلة في الدولاب وغلقه .. ثم فتح الباب .. والشكوى المتكررة من ثقل السمع .. وأراقبها بذات الابتسامة عندما تغلق بالمفتاح ثانية وأنا أتوقع ما سيحدث .. فتح ضلفة الدولاب المغلقة وإخراج الكيس والعلبة وتحول ملامح الوجه إلى الحنان السري ..

سنوات طويلة أراقب بشغف هذا السيناريو الذي قد يبدو أحيانا مملا .

يوم واحد فقط كان مختلفا في حياتها وحياة المنزل الذي أضيئت فيه أنوار الغرف كلها تقريبا .... كان وجهها مضحكا للغاية تحت تأثير كم المساحيق الملونة المبالغ فيه ، والذي جعلها أقرب ما تكون إلى بلياتشو .

وجاء ضيوف إلى المنزل لم يلبثوا إلا دقائق .. وانشغلت أنا عن مراقبتها بهموم .

ولكنني عندما عاودت ، كانت تتأكد من أن باب الغرفة محكم الغلق .

●

بنت الجيران

جميلة بنت الجيران الجدد . جميلة وميتة على وجهها تعبير واحد لا يتغير كتمثال شمعى أوجثة امرأة محنطة . ومغرورة جدا . لا تبدى أى اهتمام بمحاولاتى للفت نظرها . ربما كنت سأنصرف عنها . ولكن تجاهلها أثار فى نفسى جذوة التحدى والتصميم .

عندما أستيقظ من قيلولة الظهر أجدها دائما جالسة فى البلكونة لا أراها غير هذا التوقيت جالسة على مقعدها الأثير ، مصوبة ناحيتى « بروفيلها » الرائع .. ومصرة أبدا على تجاهلى رغم تحركاتى الكثيرة والمبالغ فيها فى البلكونة .. لكى تلتفت .. وأعترف أيضا بأننى لافضل لى فى الابتسامة التى فزت بها .. فقد كان الفضل كله لأختها التى همست فى أذنها طويلا قبل أن تنظر فتأتى نحوى بابتسامة جعلتنى أكاد أقفز منتشيا .

جميلة ونابضة بالحيوية « بنت الجيران الجدد » ذات الشمع على وجهها . عندما أستيقظ من قيلولة الظهر ، أجدها في مكانها الأثير ، وفيها كل يوم جديد .. هل هذا هو الحب ؟ !

ولكنها ما زالت مغرورة . لا تمنحني ابتسامتها اليومية إلا بهمسات لحوحة من أختها وتأتي الابتسامة وكأنها متفضلة .

بروح مغامرة قررت أن أقوم بعمل جرئ ... وكانت الفرصة متاحة ، بخلو بلكونات الجيران وعدم وجود أختها . وعلى الرغم من أن صفيري سئ للغاية ، فإنه بلاشك سيطرق سمعها ويحقق الغرض منه .. وليحدث بعد ذلك ما يحدث ... كشفت شجاعتي لتتجمع في فمي ... ولكن الصفير توقف على لساني فجأة .. وقد انتبهت إلى أنها تحملق في قرص الشمس المتوهج منذ فترة طويلة .

●

الكــلاب

فى شارعنا شبه المعتم .. كلاب الشارع تبدأ فى النباح ثم تأبى إلا أن تطاردنى بنباحها وتحرشاتها حتى باب البيت بينما أتصبب عرقا .. أكره عودة الليل بسبب هذه الكلاب اللعينة .

يقولون إن الكلاب تستدل بغريزتها على الشخص الخائف فتطارده ولكننى اليوم رابط الجأش بشكل غريب ..بل سيان عندى أن تكون كلابا أو حتى ذئاباً .

لماذا أخشاها وأنا أدرك أنها لن تلتهمنى بأى حال بل ولم يحدث أن عقرنى كلب طيلة رحلاتى الليلية اليومية .

ها أنا أدخل شارعنا المعتم .. الكلاب تتمركز فى المنتصف تماما .. لا يهم . أحدهم لا يخجل من مواقعة أنثاه فى وسط الشارع . فى العتمة تكتسب الكلاب الهيبة التى تنحسر عنها

طوال النهار . كيف أفكر فى أشياء بهذه التفاهة دون أن أخجل من نفسى !!

أشياء كثيرة غير الكـلاب جديـرة بـأن أفكـر فيهـا . بـل هنـاك مـا يـؤرقنى .

مـدير الفرقـة يأكل عـرقنا ولم يجـرؤ أحد منا على التمـرد عليه . وتفجير الموضوع دائما مؤجل .

عنـدما يفيـض الكيـل أقـرر أن أواجـهه بثـورة عـارمة .. تهـدأ شـيئا فشيئا إلى قناعـة بالتريث حتى وقت منـاسب لا يجئ أبدا ...

وها أنا أقترب من الكلاب .. وما زلت رابط الجأش .

الكلاب تنبح .... شئ عادى ومتوقع .

.... لماذا تطاردنى الكلاب ؟ !!

●

كرسى

« انزل يا ولد »

يقولها أبى بعصبية .. ثم يمسح بيده على صلعته الوقورة ، فأنزل مرتعدا من على الكرسى الموضوع فى البلكونة ...

ثم أسمع صوته هادرا ينادى أمى .. ويأمرها بإخراج الكرسى من البلكونة ، فتخرجه فى صمت .

وأحزن أنا لفقدانى إطلالتى على الحياة خارج شقتنا ، وحديثى مع صاحبى الساكن فى البلكونة الأولى فى المنزل المقابل ، وأقرر فى لحظة غضب بأننى عندما أكبر وأنجب أطفالا .. لن أمنعهم من الوقوف على كرسى البلكونة ، وليطلوا على الشارع ويكلموا أصحابهم وعندما يعود الكرسى مرة أخرى إثر محاولات أمى لاحتياجها للكرسى فى عملية نشر الغسيل مع

تعهدها لأبى بمنعى من الوصول إليه أراقب نظرات القلق فى عينيه وهو يراقبنى أحوم حول البلكونة ، أتضايق وأشكو لأمى الحظر الصارم الذى يفرضه أبى على اقترابى من الكرسى فتجيبنى بأن أبى خائف على أولادى هكذا ..

ولكننى لا أتوقف عن محاولاتى لاعتلاء كرسى البلكونة ، بينما أنتظر أول غفلة لأبى أو أمى .

« انزل يا ولد »

قلتها هادرا .. ثم مسحت على صلعتى الوقورة .. بينما أفكر فيما عساه يدور برأسه الصغير .!!

●

الحبـل

عندمـا لاحظت أنهـا تحـرك يديهـا كثـيـرا أثناء الحـديث ..
لتـمـثل بهـا الانفعـالات والمواقف ، نبـهـتـهـا بـرفق إلى أن العـادة
تلك سـخـيـفـة وغـيـر مـتـحـضـرة .. ومنتـقـدة على المسـتـوى
الاجـتـمـاعى الراقى ، وأنهـا يمكنهـا أن تسـتـغـنى عن كـثـرة
الإشارات اليـدوية بالتـعـبـيـرات اللفظيـة .. ومن ناحيـتـهـا فـقـد
أبدت تفـهـمـا واقـتـنـاعـا .. وإن كـان ببـعـض الضـيـق .. بكلامى
وشـرعت ألاحظ باهـتـمـام مـعـاناتهـا للسـيطرة على حـركـة يدها
أثناء الحـديث .. وأنا مـوقن أنهـا فى النهـاية سـتـتـخلص منهـا
وأصبحت نظراتى المراقبة للأيدى المضطربة خير وسيلة لمنعها من
سلوكها السـابق ولكننى بدأت – ألاحظ ترقبها لحركات يدى ..
مما جعلنى حذرا فى حضورها حتى لا أقع فيما سبق أن نبهتها
إليه .. وإلى جانب ذلك فقد أضطررت معها إلى الامتناع عن

عادات حميمة كقضم الأظافر ... وطرقعة الأصابع .. وكنت أبذل مجهودا خارقا للسيطرة على رغبتى المتنامية فى حضورها فأتوق إلى القضم والطرقعة .. ثم ضاعف من حدة ضيقى اضطرارى إلى التخلص من عاداتى الحميمة تحت ضغط عينيها المتحفزتين .

والغريب أننى بمرور الوقت بدأت أضيق بوجودى معها .. فلم تعد مواعيدها تحمل إلى نفسى بهجتها السابقة .. وأصبح الوقت يمر بيننا بين القلق والتململ .

وتحت وطأة النظرات المتحفزة .. والرغبات المكبوتة .. أصبحنا نجد نوعا من الراحة فى الابتعاد .

●

الصوت المعدنى

من الصقيع النفسى .. ينتشلنى صوته دائما إلى مناطق الدفء .. فأنطلق فى الحديث مستمتعا ، ثم يتكلم فأستمع باستمتاع حقيقى ، وهو يستدعى ذكريات طفولتنا وصبانا من غور الذاكرة .. ثم يمضى وقد تركنى منتشيا .. وكلما يشتد بى الصقيع أبحث عنه التماسا لمناطق الدفء فى حديثه .

وعندما يصعب اللقاء وسط مشاغلنا أسعى إلى التليفون ، نتحدث حتى أرتوى .

ولكننى فى المرة الأخيرة ، وعندما أدرت قرص التليفون ، وفاجأتنى آلة الرد بصوتها المعدنى تطلب منى ترك الرسالة ... شعرت بحلقى يجف ، وتروغ منه الكلمات .. ووجدتنى كالمصعوق أسرع فى التخلص من السماعة .

الخط الأحمر

تصطدم عينى بالخط الأحمر ، تقف الرهبة على أعتابه تمنع تجاوزه ، فتستفزنى فكرة وجود شاطئ خاص محظور علىّ ارتياده .

وأتأمل العالم المكشوف من خلفه ، فتخطف بصرى بوجهها الملائكى وبشرتها الحليبية ، أبتسم ... ثم تتلاشى ابتسامتى بسرعة عندما أتذكر ملابسى السيئة نوعا ، فأحول وجهى عنها خجلا عندما ألمحها تنظر ناحية مجموعتنا فلا يبدو عليها أنها ترانا .

ولكنها لحظات كنا قد تجردنا فيها من ملابسنا ، وخلت الرمال إلا من العجائز ليضمنا البحر الوسيع بلا نهائيه .. شبه عرايا نلهو ونلعب ، وأراها تسبح فى الماء .. فأجد فى نفسى الجرأة لكى أبتسم ..

ولدهشتى أجدها ترد الابتسامة ...

حيــــاد

أتأمله بحياد غريب ، دونما أى مشاعر ، فأتعجب ككل مرة أراه فيها من انقطاع مشاعرى عنه .. ربما لم أكن أشعر بمشكلة لو أننى كرهته ، فأى شئ أفضل من تلك الحيادية المقيتة .. التى تجعلنى كالذى لم يرتبط به يوما .

لاأعرف لماذا بالذات نكأت رؤيته كل جروحى ، بدءاً من حبى المقهور فى أحضان رجل آخر .. وانتهاء بمستقبلى المقهور .. تحت أكداس من الملفات والوجوه الكالحة ، ومرورا بآلاف الأفعال .. سواء تلك التى فعلتها دون رغبة ، أو تلك التى ماتت رغباتها داخلى من جراء العجز .

يؤلمنى شعورى بالقهر والعجز واختزال حياتى فى متتالية الإخفاقات .

ولكننى اكتشفت فجأة بأننى أشعر بتلك الحيادية تجاه الجميع .. فيعيدنى هذا الشعور المباغت إلى تأمله .... وأشرد فى دهاليز مظلمة متشعبة تحول بينى وبينه .. ويحتوينى ألم التذكر بعلاقتنا الحميمة السابقة .. فأبتعد مسرعا عن المرآه .

دفـاع

عندما تلتقط يدى جريدة الصباح .. وأحيانا المساء - فإن عينى أول ما تنجذب إلى بريد الصفحة الأدبية .. بمحتوياتها اللاذعة من نوع " وفر أوراق الكتابة " ، " ابحث عن شئ آخر " وتجرى عينى بين السطور والأسماء .. لتلتقط اسما أو اسمين لأصدقائى الشعراء الذين تعرفت عليهم فى العام الماضى ، فتؤلمنى بعض التعليقات اللاسعة والجارحة فى البريد ، وبأسى أتخيلهم يستخدمونها فى مهاجمة بعضهم البعض .. إذا ما احتدم الخلاف ، وأبتسم دائما - عندما يأتى دور السين والأكثر شراسة فى الهجوم ، وأنا أتوقع غيابه - كالعادة - لأسابيع حتى يزول الأثر الساخن للرد البريدى ، بينما تفوح من الجلسة رائحة الغمزات والضحكات المغتابة .

ومن ناحيتى ومن باب الذكرى ، أجرى بموسى المكسور على البقعة المحتوية للبريد ثم تلتقطها يدى فى رفق ، حيث تستقر فى مثواها الأنيق .. الألبوم الذهبى الصغير .

وعندما يمتلئ الألبوم لا يحمل المزيد ، أغلقه برفق .. ليستقر أمامى على المكتب .. وأشرع مطمئنا فى كتابة قصيدة .

●

تـواصـل

يجتاحنى تيار التصخر فأحزن .. وألحظه وقد تجلى على الناس فى الشوارع فأتعزى قليلا ... ولكن حزنى لا ينطفئ .. ويتوهج كلما شعرت بوطأة ثقل الصخر يغشى أخضرى .. عات طوفانه وهو يجتاح الجميع فيغير من طبيعة الأشياء .. تفقد الضحكة بهجتها .. والبسمة روعتها ... وتتقطع الخيوط بيننا .. فأحاول الهروب إليه .

" حمادة " ابن اختى .. أخضرانى كله .. تمنعنى مشاغلى من مجالسته فلا أراه الإ عابرا - ويدهشنى أن اسم تدليلى يستعصى عليه رغم بساطته .. ورغم أنه قد نطق أسماء من فى البيت فأستحثه :-

- قول خالو " لودى "

لم أر تعابير وجهى .. ولكننى أستطعت أن ألمح جهامتها فى وجهه الفزع الباكى .. فألجأ إلى الصمت مكتئبا لإفزاعه

.. ويحيرنى التساؤل :- ما ذنبه وقد امتد العجز إلى قدرتى على المداعبة .

أتأمله وأمه تحمله على صدرها محاولة إيقاف البكاء ، وشعورى بالذنب يحتوينى ويستمر بكاؤه فيتحرك شئ فى داخلى .. أكاد أشعر به يتدفق من صدر خلته يابسا .. فأقوم مدفوعا بقوة قاهرة أحتضنه وأقبله فأشعر بتدفق حنانى غريب ، ورهافة نادرة تجتاحنى ، وشفتى تتحسس بشدة خده الأملس .. شئ ما يدغدغ مشاعرى ، فتتصدع صخورى ، وأتبينه فى غمرة انفعالى يهدهد طبلة أذنى بإيقاع رقيق :- لووودى ى ..

●

جـــرح

تتشـابك أيدينا ونـحن نتـقـافـز على الرصـيف سـعـداء ..
وانتهاء الامتحان يبعث فينا شعوراً طاغيا بالخفة والمرح والجرأة
أيضـا ... وينتـزع مـرحنـا ابتـسامـات المارة فنتـمـادى فى المرح
والمعاكـسات اللطيفة الـتـى تقابل بالترحاب . نتـقافـز ونتقافز
والأيدى متشابكة . صغار كنا .

الضـجـة الشـديدة هى التى لفـتـت نظرى إلـيـه .. الـرجل
القـصـيـر جـدا .. وفى يــده بنت صغـيرة من سننا لا شك أنهـا
ابنته . يثير ضجة شديدة .. يشـخط وينطر .. ثم يعود ويبتسم
ويضحك أشير إلى رفيقى ناحية الرجل القصير جدا بابتسامة
انقلبت إلى ضحك متواصل منا .. البنت التى من سننا أطول
من أبيها .. نتغامز ونضحك ونحن نقترب منها .. ويتناهى
إلى سمعنا تهديده بالضرب إذا لم تسمع الكلام .. فتبدأ موجة
ضحك جديدة .. لتشككنا فى إمكانية تنفيذه تهديده .

كنا ما زلنا متشابكى الأيدى .. عندما فوجئنا به أمامنا مباشرة .. نكاد نصطدم به وابنته فى معدلنا السريع فى التقافز .. لا شك أننا تخاطرنا .. لأننا فكرنا فى نفس العمل فى وقت واحد .. ففكرة فض اشتباك الأيدى لم تجل بفكر أحدنا .. ولكننا بشكل تلقائى رفعنا أيدينا المتشابكة لتشكل قوسا يمر من فوق رأس الرجل القصير جدا وابنته .. ثم نتبادل النظرات ونحن نضحك سعداء .

ولكن الصمت الذى حدث وراءنا فجأة أثارنى .. ودفعنى أن أنظر خلفى .. كانت نظرات البنت التى من سننا زائغة ترتمى بحزن على الأرض .. بينما الرجل يواجهنى بوجه شاحب ونظرات منكسرة .

●

ياسمين

في يوم السفر .. رافقناهم إلى المطار لنودعهم قبل انطلاقهم إلى بلاد الصقيع ولم تفارق يد أبى يد حفيدته الأولى " ياسمين " طوال مدة انتظار الطائرة ، بينما فى يدها الأخرى قطعة الآيس كريم الذى تحبه .. والذى كان فى الشهور الأخيرة ضيفا على منزلنا كل مساء .

سافرت ياسمين !!

هو قال لى بما يشبه الهمس ... فى طريق عودتنا - بأنه لا يصدق ذلك .

ياسمين بنت أختى .. هى أهم فرد فى العائلة عند أبى .. ولا تعادلها العائلة مجتمعة حبا ومكانة ، لذلك لم أستغرب أن أراه فى المطار عصبيا بشكل لم أعهده فيه .. ولم أغضب عندما نهرنى بلا أى سبب معقول ، بل أننى كنت أبذل مجهودا

خرافيا لأدارى - اضطراب مشاعرى لكى أساعده على التماسك ، ولكنهم بمجرد أن أداروا لنا ظهورهم لمحت لأول مرة فى حياتى دموع أبى فانهار تماسكى الهش .

وفى المساء .. كنت أتسلى بمشاهدة التليفزيون .. عندما أدار مفتاح الشقة ، ولمحت فى يده علبة الآيس كريم بينما عيناه زائغتان تبحثان فى أرجاء الشقة .

●

البــوح

ببطء شديد .. كان رأسها المنكس أمامه يرتفع تدريجيا .. لتواجهه بوجه حزين .. ونظرات منكسرة ، وقلب يثقله الهم والسر الدفين .. والتردد المضنى بين البوح والكتمان .. تكاد الكلمات أن تنطلق من فمها .. ثم تحتبس تحت وطأة نظراته الصارمة .

ماذا تقول ؟ !

البنت التى كرس عمره من أجلها ضاعت فى غيبته .. والسر الرابض فى أحشائها يكبر يوما بعد يوم .. يتجه للإعلان عن ذاته .. ولا مفر من الفضيحة .

أم تقول إنها أذنبت وقصرت وتستحق أن يفعل بها ما يشاء .. ولكن عذرها أنها امرأة - لم تستطع أن تملأ فراغ غيبته ... لا تلومه ولكن تلتمس عذره .

تخترقها نظراته الصارمة الثاقبة ، وتغوص فيها ، ملاحقة السر فى طيات الصدر ، فتوقن بقدرته على أن يقرأ السر بداخلها كالعادة .. فلا تجد مناصا من البوح بالمكنون .. ينطق لسانها ببضع كلمات غير مفهومة فتسبقها الدموع ويعجز اللسان ، تستغرق فى بكاء مرير .

وعندما تنتهى تمسح آثار دموعها .. وتلتقط أنفاسها متهدجة .. ثم تمتد يدها برفق لتزيل ذرات الغبار المتراكمة على الإطار الزجاجى للصورة .. قبل أن تشرع فى مناجاة طويلة .

●

وحشـــه

الدنيا ليل .... وبرد

وابن العاشرة يمشى وحيدا .

نباح الكلاب يوقف دقات قلبه من الرعب .. والبرد يغزو جسده النحيل بسهامه النافذة الموجعة .. ليل الشتاء قاسٍ لا يرحم من لا مأوى له .. والوحدة فى الشوارع الخاوية حيث استكان الناس فى بيوتهم أشد قسوة .. منذ الظهيرة عندما طرده " المعلم " من الورشة كانت تترا ءى له مشاهد الليل القاسى .. الظلمة والبرودة .. ونباح الكلاب .. كانت الورشة هى بيته حيث لا بيت له ولا أهل .

من بعيد يلمح العسكرى وهو قادم ناحيته .. ينحرف عن الطريق بسرعة ويدخل أحد البيوت - ليختبئ بها .. يكره ذوى السترات الداكنة والأزرار النحاسية ويخافهم .. ربما لأنه وحيد

ولا أهل له ... تموء قطة بصوت عال أشبه بعويل امرأة .. فيود لو يخنقها لكي لا تشي بمكانه ولكنه يحب القطط ويصادقها . يقترب من القطة ويربت عليها فتسكت وتستكين له .. يتذكر كيف طرده " المعلم " شتمه .. ركله بقسوة .. كل " المعلمين " قساة أفظاظا ، ليس نهاية العالم أن يضيع مفتاح "إنجليزى" أى مفتاح هذا الذى يجعل المعلم يرمى صبيه فى الشارع وهو يعلم أن لا مأوى له سوى الورشة .

يحاول أن ينام فى " حناية " السلم فينبهه نباح الكلاب بأن النوم فى مكان مفتوح كهذا غير مضمون العواقب ، إن كلبا مسعورا قد يفتك به وهو نائم .. لن تستطيع النوم فى هذا الظلام ... يشتاق إلى النهار والجلبة والضجيج .. عندما يرى أشعة الشمس . ربما يستطيع أن ينام .

●

اكتئاب

الثالثة بعد منتصف الليل ... أحد أيام شهر ديسمبر ..

السماء لا تتوقف عن إرسال المدد . المطر يطرق على زجاج النافذة بعنف .. ضوء خاطف نفذ إلى الغرفة المظلمة أضاءها برهة .. أتت الموجة الرعدية هادرة .. خيل إليها أن السماء غاضبة عليها .. تملكها شعور طاغ بالخوف . أشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة ، وأخذت نفسا عميقا .

انطلقت منها آهة تمتزج فيها الحسرة بالألم .. الوحدة تنخر عظامها أغمضت جفنيها وراحت تتذكر :

أيام الصالة .. الرقص .. الأضواء .. المعجبون .. أين تلك الأيام ؟

لم يبق سوى الوحدة والمرض ، حتى أهلها تبرأوا منها . هجرت البيت وهى ابنة ثمانى عشرة سنة ، لتبحث عن المال ..

أضاءت نور الحجرة ثم ذهبت إلي البار وشربت كأسا .. لعنت في نفسها الزمن والوحدة والرجال .. آه من الرجال .. آه من هذه المخلوقات القذرة .. امتصوا رحيقها ثم تركوها بعد أن ذبلت .. الذين كانوا يطاردونها كالذباب ، أصبحوا يتهربون منها كأنها جيفة نتنة .. أفاقت من خواطرها على دوى الرعد .. أحست برغبة مجنونة تدفعها إلى الخروج فى هذا الطقس المخيف .. بسرعة ارتدت ملابسها الثقيلة .. لم تنس مسدسها فهو رفيق وحدتها القاتلة .. نزلت الدرج ببطء .. مازال المطر يهطل .... والرعود تتوالى .. مضت فى خطوات كليلة .. أحست بالبرودة الشديدة تتسرب إلى أعماقها ولكنها مضت سائرة .. لمحت من بعيد امرأة آتية نحوها .. فتعجبت كيف خرجت هذه المرأة الشجاعة في هذا الطقس اللعين .. اقتربت المرأة منها .. أصابها ذهول .. إنها هى نفسها .. نفس الملامح .. نفس الملابس .. صرخت فيها مذعورة : ماذا تريدين منى أيتها العاهرة ؟.. لم ترد الأخرى ونظرت إليها بسخرية .. ظلت تردد سؤالها بطريقة هيستيرية والأخرى تنظر إليها بسخرية .. توقفت فجأة عن ترديد سؤالها .. لمع بريق فى عينيها .... ودوت طلقة فى هواء الليل الموحش .

●

شعاع

ينفرج الزحام قليلا .. فيصدمني شعاع عجيب .. مجهول الهوية في زحمة العيون .. شعرت بوقعه الكاوى عندما استقر على عينى .. أرتبك .. ويهتز الترام فتلتئم الأجساد .. وينقطع اتصالى به بفضول قاهر أنتظر فرجه .. وشيئا فشيئا ينفصل التلاحم الجسدى الهش وأعاود الاتصال . لاسع .. وكاوى الوقع على عينى .. متحد ومستفز .. ربما عدائى . أتحير وأرتبك ثانية .. ويتبعثر داخلى .. تلتئم الأجساد ثانية .. وأغرق في أحاسيس مبهمة منتظرا انفراجه ثانية .. تأتى بعد فترة خلتها دهرا ..

مصوب ناحيتى بإصرار عجيب يحمل على ظهره شحنته الكاوية شديدة التركيز . أستجمع قوة تركيزى على مصدر الشعاع .. لا شئ إلا أنه يأتينى من أسفل .. أغمض عينى

ويزداد ارتباكى أولى ظهرى مضطرا متلهيا بالنافذة وصورها المتحركة .. تأتينى صورته فجأة .. وجهه الطفولى وقد شوهه الألم وصوته الباكى . " مش أنا يا أستاذ - مش أنا " .. ينتابنى شعور طاغ بالكآبة .. وأشعر به يخترق ظهرى لاسع وحارق كسكين حدت شفرته . فأكبح رغبة قاهرة للالتفات ورائى .

●

فى الميدان

فجأة أشار لى ناحية رجل يستند إلى السور الحديدى .. فتساءلت بنظرى ليرد على بضحكه الذى أدهشنى .. ولم أجد مفرا من انتظاره حتى ينتهى من الضحك لأعرف سبب الإشارة .. ولكنه لعجبى لم يتوقف إلا ثوان عاد بعدها إلى الضحك بصوت عال .. واستفزنى أسلوبه فى الضحك .. فهددته بتركه فورا إن لم يتوقف عن الضحك ويخبرنى بما يضحكه هكذا .. وأثمر تهديدى فتوقف عن الضحك واستمر ثوان يلتقط أنفاسه .. ثم أشار لى ناحية ذات الرجل الذى يستند إلى السور الحديدى .. واستغرق فى نوبة ضحك جديدة .. أثارت حنقى .. فاستدرت منفذا تهديدى بتركه .. كان الرجل يقف مشبكا يديه خلف ظهره .. قد بدت عليه علامات التحفز .

تسمرت فى مكانى .. الرجل ضخم وصديقى قصير نحيف

.. والمعركة إذا تمت نتائجها محتومة ، جلت ببصرى بين الرجل وصديقى .. فانتابتنى نوبة من الضحك .. ولم أشعر إلا بالرجل يفور ويمور والمارة يحاولون منعه من التحرش بنا .. بينما تلتقط أذنى تساؤلات الرجل المستنكرة عما إذا كان فى مظهره شئ يضحك أولاد الـ (....) والمارة ينفون ذلك نفيا قاطعا حتى نجحوا فى تهدئته ومنعه من افتراسنا . ولم يكن أمامى بعد انتهاء المشكلة إلا تعنيف ذلك الأحمق الذى كاد أن يهلكنا .. فاستدرت إليه لأعنفه .. ولكنه بدا لى مغرقا فى النظر صوب السور الحديدى .. وعندما نبهته إلى وجودى .. وسألته بعنف عن سبب ضحكه الذى كاد أن يهلكنا .. أشار بدهشة ناحية السور الحديدى فالتفت بحذر شديد كان الرجل الذى تشاجر معنا يقف مستندا إلى السور .. ينظر ناحيتنا .. وجسده الضخم يهتز من شدة الضحك .

●

اشتهـــاء

يحتوينى ذلك الحضور الأنثوى الطاغى .. ويستعصى على الإفلات من مجاله الجاذبى .... أنوثة لا يحد من طغيانها سوى ذلك النائم على ركبتيها .. تهدهده بينما هى شاردة عبر النافذة .. أختلس إليها النظرات متأملا ملامحها الأنثوية المثيرة والرقيقة معا .. ثم أهرب بنظراتى حينما تنتزع نفسها من النافذة إثر حراك الصغير محاولة إعادة السكينة التى فارقته وللحظات استحوذ على انتباهى .. يفرك بقدميه ثم يتقمصه عفريت لتشارك الأيدى مع الأقدام فى معركة وهمية يضرب فيها خبط عشواء بين الهواء وجسدها حتى يكشف عن ثدى بلون الحليب يشعل جذوة اشتهائى .

يكتسى وجهها بلون الدم .. وهى تنحنى لالتقاط الزر المخلوع .. بينما تخترق عينى هذا الجزء المكشوف الذى سرعان ما تمتد يدها لتغلقه بضم قميصها من أعلى .. أتأجج أنا وتبدأ مباراة فى غاية الإثارة بين محاولاتى المتلصصة لاقتناص نظرة

.. وتصميمها الحديدى على ألا تسمح بها فتضم بإحكام طرفى قميصها من أعلى بيد بينما اليد الأخرى تمسك بالصغير وتنشغل هى باللعبة الدائرة ، بينما الصغير يواصل الحراك على حجرها ، فيتزحزح قليلا حتى يقترب من حافة ركبتيها ، فتمتد يدها بسرعة عجيبة لتعيده إلى مكانه ، ثم بذات السرعة تعود لتمسك بطرفى قميصها ، وأكون أنا قد اقتنصت نظرة . بينما يصطبغ وجهها الحليبى بلون الدم .

أغوص مستمتعا إلى أقصى حد فى حرارة اللعبة ، ويتوهج اشتهائى أكثر فأكثر مع كل نظرة أقتنصها من ثديها الرائع فينطلق خيالى ليستكمل صورته ، ثم يتخذ ذلك منطلقا لما هو أبعد .... ولكنه فجأة يطلق عقيرته لبكاء حاد متواصل ، فيحيل جو اللعبة إلى توتر أخذ يزداد مع تدفق صراخه ، بينما هى تحاول تهدئته بأرجحة ركبتيها ، ولكنه اللعين لا يستجيب ويستمر فى بكاء متصل لا تغنى معه الهدهدة ، ولا صوتها الرقيق يناغيه فتخرج ثديها بتلقائية وبساطة لتضعه برفق فى فمه الصغير ، بينما تنطفئ جذوة اشتهائى بشكل فجائى وحاد .

●

الدكتوره

لثوان وقفنا نحملق فى بعضنا البعض ، وكان أول ما تبادر إلى ذهنى أن أقدم التهنئة على درجة الدكتوراه .. فقد كنا جميعا زملاؤها - نتوقع لها الكثير .. بعد أن ظهرت لنا علامات عقليتها الفذة أثناء الدراسة .. ولكننى فوجئت بالطفل على يدها .. فأسعدنى ذلك بعد أن نما إلى علمى عنها ما يشبه المأساه .. تلك التى تمثلت فى وفاة أكثر من طفل لها بعد ولادته مباشرة .. لذلك هنأتها على المولود بحرارة - سائلا عن اسمه المختار .. ثم متطلعا إلى وجهه المختفى فى صدر أمه .. فمبديا رأيا مجاملا فى جمال الطفل وطلعته البهية .

وأخذتنا أحاديث حول الأيام الخوالى .. وذكرياتنا التى لا تنسى .. والنوادر العجيبة لبعض الزملاء .. ثم انطلقت تتحدث عن أبحاثها ، والآفاق الجديدة التى يفتحها العلم للإنسان ،

وضرورة تخلص الناس من الأوهام والخزعبلات التى لا أساس لها من العلم .

ثم افترقنا على وعد بمداومة السؤال والاتصال .... ولكننى بعد أن فارقتها بثوان اكتشفت بدهشة أن الدكتورة كانت تحتضن الطفل بشكل بدا لى غريبا .... وكانت تتمتم بكلمات لم أفسرها كلما حانت منى نظرة إلى الوليد .

●

ذات

...

توأمان ، هند وجيلان . البنت هند عبيطة ، أما جيلان فخبيثة تضحك عليّ دائما على الرغم من أنها لم تتعد الثالثة .. قابلتها اليوم على سلم العمارة .

- إزيك يا جيلان .

- أنا هند .

الخبيثة تريد أن تلعب لعبتها المفضلة فى الضحك عليّ

- أنت جيلان .

- أنا هند .

أجبتها وأنا أضحك :

- خلاص يا جيلان .. أنت هند .

- لأ أنا هند .

- أجيبلك أيس كريم ؟

- آه .

اصطحبتها إلى البقال القريب واشتريت لها علبتين آيس كريم .

- واحدة لك والتانية لهند .

- أنا هند .

اصطحبتها إلى المنزل .. وقبلتها وأنا أودعها عند باب شقتها.

- باى باى يا جيلان .

ولكنها قذفت علبة آيس كريم فى وجهى وهى تبكى .

- أنا هند قول أنا هند .

●

لقاء عابر

التفت فجأة فألمحها فى غبش الفجر .. فأندهش لوجودها على الكورنيش فى مثل هذا التوقيت وأتساءل فى نفسى .. هل جفاها النوم مثلى ؟ !

أتأملها على ضوء الفجر الشاحب .. ببلوزتها الخفيفة وبنطلونها الطويل الضيق وشعرها الفاحم فأخمن أنها لا تزيد عن السادسة أو الثامنة عشرة .. وأراها وهى تميل ناحية السيارات القليلة المسرعة فى لامبالاه ثم بيأس تضع يديها فى جيبى بنطلونها الضيق .. وتركل الأرض بغيظ ... وتجملق فى الأرض لحظات .. ثم تتمشى بخطوات كليلة .. وتجلس على المقعد المجاور .. مواجهة البحر بعينين متعبتين .. ونظرة تنتهى بالتفاتة ناحيتى .. فتكشف وجودى بشىء من البهجة وتلقى إلىّ بابتسامة مشجعة .. أرد عليها بتحفظ متوجس ثم أرتبك

عندما أراها تقترب منى فتواجهنى تماما .. أنظر إليها مستفهما فترد على بنظرة أفهمها . فأنتفض مذعورا .. وأنا أبتعد عنها لخطوات متحاشيا الالتقاء بنظراتها المتضرعة المستجدية .. ثم بحركة تلقائية أخرج لها جيبى بنطلونى الخاويين .. فتشملنى بنظرة احتقار من أسفل لأعلى ثم تبصق على الأرض قبل أن تولينى ظهرها مبتعدة .. ولكنها تتوقف فجأة كمن نسى شيئا .. تلتفت إلى بعصبية وتخرج جيبى بنطلونها الخاويين .. ثم تمضى .

●

مواجهة

ينتقل بصرى من زرقة البحر الرائقة .. فيستقر على وجهه الرائق أيضا .. وأتأمل محياه الطفولى الجميل .. فتنساب فى مخيلتى ذكريات بعيدة بهيجة .. ويلاحظ نظرى إليه .. فيمد يديه بالكرة تجاهى فأبتسم معتذرا .. وأعود إلى البحر .

عندما ألتفت ثانية .. أجده لا يزال يحملق فىّ .. ثم بمجرد نظرى إليه يمد يديه بالكرة مجددا دعوته .. فلا يجد سوى ابتسامتى المعتذرة .. فيتكدر وجهه وتغيم عينيه .. ثم لا أجد مناصا عندما تلقى إلىّ أمه بنظرة رجاء فأقوم محرجا متثاقلا .. بينما يبتهج الصغير يقذف بالكرة فألتقطها وأردها إليه ثانية .. وأنا أشعر بثقل حركاتى .. ثم تغزو جسدى وروحى مشاعر الخفة والانطلاق .. فأنغمس بابتهاج فى اللعب ويغرى ابتهاجى السيدة .. فتندفع إلى المشاركة ليصبح اللعب

ثلاثى الأطراف نتقاذف الكرة ونضحك وتتخطانى كرة طائشة أعجز عن التقاطها - أستدير إليها ملاحقا فأتجمد كمرآة .. يواجهنى بوجهه المتغضن وشعره الأشيب .. فيبتلعنى الخجل تحت وطأة نظراته الساخرة .. وأتمسمر أحملق فيه ببلاهة بينما تستطيل شعيراته البيضاء محاولة الوصول إلى أقدامى لتشل حركتى .. ويتناهى إلى سمعى صوت الصغير مناديا بإلحاح .. فألتقط حفنة رمال أقذفها فى وجه العجوز .. ثم أواصل اللعب .

●

بنت عم حامد

مسكينة ليلى بنت عم حامد . يأتينى صوتها فى المساء - تصرخ من ضرب الوحش حامد . حامد بواب العمارة المقابلة ليس وحشا .. أعنى أنه ضئيل الجسم جدا .. بل ويذكرنى منظره بفأر مذعور دائما .... ولكنه يتوحش فى المساء عندما يضرب ليلى .. وأستطيع بسهولة أن أستنتج زوجة حامد وراء طقوس الليل الوحشية التى لا ينافس انتظامه فيها سوى فرض العشاء . أتعاطف مع ليلى دائما وأهش فى وجهها إذا ما ظهرت فى شباك بدرومها الواطئ جدا بحيث يلامس أرض الشارع ، وأحرض أختى على التنازل لها عن بعض ملابسها القديمة نوعا .. والترفق فى معاملتها ، ضئيلة جدا مثل حامد هذه البنت .. تجافيها أمارات الأنوثة وتكسو وجهها تعابير ذلة ومسكنة تشعرنى بالرثاء .

ولكن دهشة غاضبة تتقمصنى عندما تخبرنى أختى بما يدور . عجبا !! أنا أحب ليلى ؟ بل وألقى إليها خطابا غراميا أثناء مرورى بحذاء شباكها !! والأكثر من ذلك أن إحداهن قد اطلعت على نص الخطاب وبالقطع لم أسأل أختى كيف تأتى لها العلم بالأمر ، فأنا أعلم بوجود شبكة معلوماتيه تضم بنات الشارع وتسعى إلى تحقيق مبدأ اشتراكية المعلومات بدءاً من الأخبار وانتهاء بالأسرار.

ولكنى عندما راحت الدهشة ، وتلاشى غضبى الهش ، بدأت أستمتع بما ترويه عن أن أهش فى وجه ليلى ، وأتحاشى الوقوف فى البلكونة خشية تأويل الأمر . ولكن أجدنى أشارك فى الحكاية - أتلقى باستمتاع وفضول شديدين - وأختى تواصل تزويدى بآخر الأخبار وعلاقتى مع ليلى التى أبثها فى خطاباتى وشعور الظفر الذى يحتويها حينما تخبر بعضهن على أنى أتزوجها فور تخرجى من الجامعة رغبة منى فى إنقاذها من براثن حامد ودسائس زوجته .

مرة واحدة فقط هى التى خالفت فيها الحظر الذى فرضته على نفسى بالوقوف فى البلكونة ، وكانت ليلى فى شباكها الواطئ . وقد بدأت رادارات شديدة الحساسية تتقاطر على

البلكونات المنتشرة على طول الشارع وكنت على وشك الانسحاب عندما لمحت بطرف عينى البنت ليلى تنظر نحوى وهى ترد على ابتسامات لأفعال وحركات لم أقم بها أصلا .. وهو ما جعل الرغبة فى الضحك تتفجر بداخلى ولكن الرغبة قتلت فى داخلى قبل أن تظهر فى تجليها الأخير .. بفعل شعورى بحصار الرادارات شديدة الحساسية وهو أيضا ما عجل بانسحابى المحسوب بحيث لا يثير الريبة .

ولكن اللعبة وصلت إلى قمة إثارتها بحيث تحتم إيقافها بشكل حاسم بعد أن أخبرتنى أختى بأن الساعة السادسة بالضبط وهو ميعاد أول مقابلة مع البنت ليلى . وكان محتما أن تنتهى المسألة بشكل أقرب إلى العلانية وهو ما جعلنى أقف فى البلكونة بلباس البيت ابتداء من الخامسة والنصف .. ومع اقتراب السادسة بدأت الرادارات تتقاطر على البلكونات ثم ظهرت البنت ليلى فى شباكها الواطئ وقد تزينت ولبست أفضل ثيابها وارتسمت على وجهها ابتسامة مرحة ثم بدأت - ألاحظ ازدياد توترها مع اقتراب السادسة التى ما حلت حتى لمحتها تنظر نحوى بقلق شديد .... تحول فى لحظات ضئيلة إلى

تجهم .. ثم نظرات منكسرة تطوف على رادارات البلكونات ثم اختفت فجأة من الشباك الواطئ .. مما جعلنى أزفر بارتياح .. وكنت أستعد بينما الرادارات المنتشرة تستعد أيضا بمغادرة البلكونات .. عندما لمحتها تعدو فى الشارع كأنها تريد اللحاق بموعد ما .. وكانت سعيدة ومنطلقة .

●

زوايـــا

عبرت الشارع لاهثا .. بعد أن تفاديت سيارة مسرعة .. كادت تدهمنى .. ملاعين سائقو السيارات .. لا يطيقون الانتظار .. وكأن لحظة انتظار ستريك حياتهم .. كأنهم جميعا أطباء ينتظرهم موتى على حافة الموت .. آخر ما يفكر فيه هؤلاء أمثالى ممن يسيرون على أقدامهم ملاعين .. ملاعين .. لماذا كل هذه العجلة ؟ !

بودى لو أهشم كل السيارات المتعجلة بلا معنى .. وبلا أى أحساس بمن يستخدمون أقدامهم . أفتح أزرار قميصى إلى حد غير لائق .. المنتصف تماما حيث تبرز الفانلة الداخلية .. ولكن ما حيلتى فى هذا الطقس الجهنمى .. لزوجة العرق .. والجو الخانق .. والطريق إلى محطة الترام طويلا ومرهقا .. ولما

أضفت إليه تمثلى لحال الترام فى ساعة الذروة تلك .. فقد تبدى لى ما أبتغيه عبثيا .. وكأننى المستجير من الرمضاء بالنار .. لذلك .. وبعد تردد وسيط .. قفزت فى سيارة الأجرة الواقفة فى الإشارة دونما استئذان من السائق الذى لم يحاول إخفاء ضيقه من تصرفى الأرعن .

طابور السيارات الطويل أصابه الشلل ... أحفظها جيدا إشارة كوبرى الجامعة .. لا أقل من ربع ساعة حتى يتدفق النهر ثانية .. أنظر فى ساعتى فتشير إلى الثالثة تماما .. فأدرك أننى متأخر جدا وأدخل فى حسابات حول تقدير وقت الوصول .. ثم الغذاء وإمكانية النوم لساعة على الأقل قبل حلول موعد العمل المسائى .. أطلق كما لا بأس به من زفرات الضيق قبل أن يتدفق النهر من جديد .. وها أنا أقترب من المنزل أخيرا محطة فقط وساعتى تشير إلى الثالثة والثلث .. تتوقف السيارة فجأة فأنتبه إلى السيدة وهى تدفع بعربة الأطفال أمامها ، ألتفت إلى الوراء لأجد طابور السيارات التى تطلق عقيرتها متعجلة السيدة البطيئة جدا فى سيرها أتململ فى مقعدى وأنا أراقب بضيق دفعها البطئ لعربة طفلها أشعر بمقت

مفاجئ لها .... سيدة سمجة لا تكترث بطابور السيارات الطويل المتوقف من أجلها وبالقطع لم يطف ببالها أنه ربما هناك شخص مثلى متأخر جدا .. أف ملاعين هؤلاء المارة فى عدم اكتراثهم ..

●

عفاريت

ربما كنت الوحيد فى شارعنا .. الذى لا تعاف نفسه مجالسة الشيخ مصطفى .. فلم أتطير منه لمجرد كونه "حانوتى" كما لم ألق بالا بما يتناثر حول سمعته على نحو يغتال أمانة الرجل وضميره ...فقد كانت فى النهاية مجرد شائعات تتبدد حالما تجلس إليه .. وتستمعه يتحدث عن أمجاد المهنة وأساطينها الأولين .. والدخلاء عليها .. ثم ينتهى من ذلك كله وهو يهز رأسه متحسرا .

- " خلاص ما بقيتش زى زمان يا بيه "

ويتجلى الشيخ مصطفى بالذات عندما يتحدث عن العفاريت ويتدفق بسيل لا ينقطع من الحكايات يتخذ فيها وجه سيماء الجد ، ثم يتلون بالارتعاب فى مناطق الإثارة من الحكاية بما يصاحب ذلك من انخفاض الصوت ليقارب الهمس ، ثم يعود

الصوت قويا معافى بعد تجاوز المنطقة المثيرة . وعندما لا أستطيع مداراة الابتسامة التى لا تلبث أن تحتل ساحة وجهى يلاحظها بغضب العاتب :

" موش مصدقنى يا بيه .... طب والمصحف حصل "

وأضطر إلى تصديق حدوث ذلك .. فيواصل حكاياته التى لا تنتهى إلا بنهاية الجلسة ... ثم يؤكد بأننى لن أصدقه تماما إلا عندما تظهر لى العفاريت بنفسها . ولكننى فى الفترة الأخيرة لاحظت عليه آثار استغرابى .. كان الشيخ ينحف بشدة ... وتعلو وجهه صفرة كصفرة الموتى .. وكانت نظراته زائغة لا تستقر على شىء .. تطول فترة سرحانه الذاهل بما يبعث على القلق .. والأغرب من ذلك أنه لم يعد يتحدث عن العفاريت ، وهو ما دفعنى إلى محاصرته ليجلو لى غموض أحواله ..

" موش حاتصدقنى يا بيه ... موش حاتصدقنى "

ومدفوعا برغبتى القاهرة فى معرفة سره ، أكدت له بأننى سأصدقه وما عليه إلا أن يتكلم فيجد آذانا صاغية .

" العفاريت يا بيه ... العفاريت "

العفاريت هذه المرة تحاصر الشيخ مصطفى ، وتنكد عيشته ولا تظهر له فى الترب وحدها ولكن أيضا فى الشوارع المظلمة .. وفى بيته عندما ينطفئ النور .. بل فى أى مكان يمكن أن تظهر فيه والغريب أن العفاريت غير محتشمة . فهى لا تلبس شيئا . كما أنها ليست غريبة .

" عارفهم واحد واحد يا بيه "

ولكن الشىء الوحيد الذى بقى هلاميا فى حديث الشيخ هو سلوك العفاريت فهو لم يذكر أى فعل محدد لها سوى الظهور وكان واضحا من التغيرات التى اعترته أن هناك ما هو أكثر . ولكنه ظل يراوغنى بينما أواصل حصاره .. حتى احمر وجهه .. وارتجف وهو يقول محرجا :-

" عايزين يسرقوا هدومى يا بيه "

●

دومه والشجرة

متألقة .. متأنقة .. وسط غابة من الأحجار

تلك هى الشجرة الوحيدة فى حينا .

شجرة التوت ..

كانت الشجرة منزرعة وسط أرض بلا سور .. ولا أحد من سكان الحى يعرف من هو بالضبط صاحب هذه الأرض وعلى الرغم من ذلك لم تعدم الشجرة نفرا من الناس يهتمون بها وكأنها شجرتهم وفى عصارى الصيف كنا نجتمع تحت ظلها .. نتحاور ونتسامر .. أنا وياسر وعادل ومحمد ودومه جميعا فى المرحلة الثانوية ما عدا دومه .. ولم يكن دومه بالصاحب المناسب لنا فلا هو بالفتى المتعلم ولا هو بصاحب الخلق .. وكان البعض يتندر على هذه العلاقة إذا ما قابل أحدنا بالمثل العامى.

(ايش لم الشامى على المغربى)

وكان من الصعب الاستغناء عن دومه فى مجلسنا فهو من الظرفاء النادرين .. ونحن نحب البسمة ونعشق النكتة .. دومه بالنسبة لمجلسنا كالملح فى الطعام .

أغرب شىء لاحظته أن دومه لا يحب الشجرة .. وإذا جلس معنا تحت ظلها جلس متأذيا وكنت أشعر أن الشجرة أيضا تكره دومه .. وعندما صارحت الأولاد بهذا الخاطر الغريب ضحكوا منى .. وظلوا يتناولوننى بسخريتهم اللاذعة طوال الجلسة ولكننى ظللت مصرا على ما اعتقدته ثم تغيب دومه عن مجلسنا .. ليعود شخصا جديدا .

كان مظهر دومه الجديد غريب على أنظارنا .. الملابس الغالية .. الحذاء .. كل شىء جديد وغال .. وعندما التففنا حول دومه نسأله عن سر ذلك أجابنا وهو يضحك :

" الرزق يأتى للشطار "

ودعوناه للجلوس كعادتنا تحت الشجرة .. ولكنه اعتذر بترفع شديد ذلك أن ملابسه الغالية لا تسمح له بالجلوس تحت شجرة حقيرة كهذه .

كانت الأيام تمر .. والولد دومه يزداد ثراؤه بطريقة غير مفهومة .

إن ذلك لم يجعلنا نندهش فالثراء بهذه الطريقة لم يعد شيئا عجيبا فى هذه الأيام ولكن الأمر الذى جعلنا ننظر إلى بعضنا فى صمت حزين أن شجرة التوت لم تعد تثمر وسرعان وسرعان ما بدأت فى الذبول .

●

اكتشاف

يجلسان فى الترام .. صبيان سنهما حوالى أحد عشر عاما . أحدهما أسمر . ذو رأس كبيرة كأنهما رأسان ، يلبس فانلة رخيصة .. وبنطلون جينز باهت ويضع فى إصبعه خاتما كبيرا ، كهذه التى يلبسها المعلمين ولكنه ليس من الذهب ، وإنما من نحاس لامع . وأما الآخر فأبيض اللون رقيق ، فى وجهه مسحة من ملاحة يلبس قميصا مخططا وبنطلون جينز رخيص ويضع فى إصبعه دبلة من الفضة واسعة على إصبعه .. وفى جيب قميصه صفارة موسيقية من البلاستيك .

اقتربت منهما وأزحت الصبى الرقيق قليلا وأنا أقول له :

- خذنى جنبك .

لم يلتفت إلىّ الصبى الرقيق ، وإنما توجه إلى زميله "ذى الرأسين" قائلا فى تفاخر :

- أنا رحت بالعجلة لحد محطة مصر .

ورد الصبى " ذو الرأسين " :

- أنا رحت لحد المرسى أبى العباس .

فجأة أشار الصبى الرقيق إلى أحد العمارات قائلا :

مرات حمودة الجديدة ساكنة هنا .

- " سيدة " مرات حمودة اتقبض عليها قبل العيد .. ومعاها تلت أكياس بـــودرة .

قال الصبى فى اندهاش :

- حصّلت حمودة !

- حمودة حايطلع براءة . ياعم رجالة المعلم صالح ما بيتخافش عليهم .

- مين اللى قال إنه طالع براءة ؟

- أبو الولد "حموكشه" قال إن التفتيش " بوش " يعنى باطل .

- حمودة لازم حيقع تانى .. المشى البطال آخرته وحشة .

- عندك حق .. وإن شاء الله ربنا حا ينتقم لأبوك .

بدت على الصبى الرقيق أمارات الدهشة والاستنكار ..

- وإيه دخل ابويا فى الموضوع ده ؟

- ما هو حمودة اللى سلط عليه .

- لا يا أخى .. حرام عليك .. أمى قالت إن الحكومة خدت أبويا بسبب موضوع الانتخابات .

- لا يا جدع هو ابوك بتاع انتخابات .. ده حمودة هو اللى ورطه وبعدين خانه .

ظهر على وجه الصبى الرقيق عدم التصديق :

- على العموم أمى قالت مالكشى دعوة بالموضوع ده .. حاتيجى معايا تزور أبويا فى السجن ؟

- حا تروح سجن الحضرة ازاى ؟

- حاركب ترماى من المنشية .

- قول له " زيزو ويوسف " بيسلموا عليك .

- حا يزعل منك .

- ياعم مش حيدخلونى .. إنت حاتدخل ازاى ؟

- حاستنى أمى والمعلم صالح أدخل معاهم .

- وإيه دخل المعلم صالح فى الموضوع ده ؟

- هو اللى جاب التصريح .

- حايدخل معاكم ؟

- لا ... حايوصل أمى بس .

هم الولد " ذو الرأسين " أن ينطق بشئ ولكنه ابتلع كلماته بسرعة قبل أن تخرج من فمه وصوب نظره إلى الأرض فى خجل .. بينما الولد "الرقيق" قد اكتسى وجهه بسحابة من الكآبة ، وغرق فى الصمت وهو ينظر من الشباك نظرات زائغة .

●

كثير أم قليل

فى أثناء عودتى إلى منزلى ، وبالشارع المؤدى إليه وجدته أمامى: طفل يجرى من رصيف إلى رصيف ، ثم يتوقف ليحملق فى الأرض ، ويلتقط شيئا ثم يلقيه إلى الأرض مرة أخرى ، ويعود ليجرى من رصيف إلى رصيف .

عندما اقتربت المسافة بيننا توقف ، ثم عاد إلى الخلف ونظر إلىّ بألفة غير عادية ، تفحصته كان فى الخامسة من عمره تقريبا ، تطل البراءة من ملامحه ، يلبس بنطلون بيجامة ضيق وفى يده كيس من البلاستيك .

استوقفنى قائلا :

- تسمح .... تسمح .

- نعم .

سألنى ببراءة شديدة :

- خمسة يبقوا كتير ولا شوية ؟

- نظرت إلى الكيس الذى بيده ، فاستنتجت على الفور أنه ذاهب لشراء خبز.

- حاتشترى عيش ؟

- آه .

- طب وليه مسألتهمش فى البيت ؟

- أصل .. أصل همه قالوا لى بس أنا نسيت .. عارف لو رجعت أسألهم تانى حيقولوا إنى عبيط وبانسى بسرعة .

- طب ومين اللى حياكل العيش ؟

شخص ببصره إلى السماء كمن يفكر فى مشكلة عويصة ، ثم نطق ببطء شديد :

- أبويا .. وأمى .. وأنا .. أختى الصغيرة ما بتاكلش العيش على طول بترضع .. بتعيط وترضع عارف هى حتكبر أكتر من أخويا .. أخويا عبيط مبيعرفش ياكل العيش تصدق ..

بيمص العيش بعدين يرميه على الأرض .

سـألتـه :

- طيب وفين الفلوس اللى معاك ؟

فتح يده اليمنى فوجدت بها ورقة بخمسة قروش .

سألته مشفقا :

- وضيعت الخمسة صاغ التانية ؟

ضحك الولد فى عفرته :

- هاها .. أهيـه .

فتح يده اليسرى التى تمسك بالكيس ، لتبرز قطعة معدنية من فئة الخمسة قروش .

قلت له منهيا مشكلته العويصة .

- خمسة أرغفة يبقوا كتير مش شوية .

قال فرحا :

- متشكـر .. متشكـر .

تقافز إلى الأمام لعدة خطوات ، ثم عاد مرة أخرى ليقول لى :

- أبويا جـاب لنا لحـمة . وأمي حـاتعـمل لنا كـفـتـة زى اللى أكلناها عند خـالتى .

قلت لـه مداعبا :

- آجى آكل معاكم ؟

بدت الحيرة على وجهه ، وكأنه بغت بهذا الطلب المتطفل ، ولكنه رد بسـرعـة .. ، طب حـاقـول لابويا .. لو وافق ابقى تعالى .

قـالهـا ثم أعطاني ظهره ، وعـاد ليـجـرى من رصـيف إلى رصـيف ، ثـم يتـوقـف ليـلتـقـط الشيء مـن الأرض ويعـود ليـجـرى من رصيـف إلى رصيف .

تابعته ببصرى حتى غاب عني .

●

قطــه

يأتينى طرقها على الباب ، بينما أنا غارق فى الدفء تحت الأغطيـة السـميكة ، فـأتجـاهل الطرقـات وأغـمض عـينى استـمتـاعـا بالدفء ، ولكن طرقـهـا يزداد حدة ، فألعنهـا فى سرى على تلك الضجة التى تحدثها ، وأقرر أن أعـاقبهـا فى الصباح بحرمانها من اللبن ، ثم يشترك صوتـها مع الطرقـات فيمـا يشبه التصميم على الدخول ، فأتعجب من تلك الرغبـة المفاجئة فى المبيت بالداخل على الرغم من جريان العـادة على مبيتـهـا خارج الشـقـة ، ثم إننى لست على استـعداد فى هذا اليـوم القـارص البـرودة لمغـادرة الفـراش الدافىء من أجل نزوة أصابتها للمبيت بالشقة .

ولكـن يرتـفـع صوتها إلى مـا يشبه عـويل امـرأة ، فـيـزداد حنقى عليهـا ، وأحاول تجاهل صراخهـا ، ولكن الصراخ يزداد

حدة فى ارتفاع كـأنه بكاء امرأة يكاد يمزق القلوب ، ولكن ذلك لا يجعلنى أفهم سر إصرارها على الدخول وقد اعتادت المبيت خارج الشقة فى أجواء أشد برودة من الليلة ، ويزداد إلحاحها بصراخ حاد طويل المقاطع ، فأحاول - رغبة فى عدم انتزاع نفسى من الدفء - إقناع نفسى بأننى لست قاسيا ، وإنما هى رغبة مجنونة ليس لها مبرر ... ولكننى فجأة أتذكر شيئا يجعلنى أنتفض مذعورا ، فأقوم مسرعا لأفتح باب الشقة ، فتدخل متثاقلة تتساقط منها قطرات الدم ، بينما تحمل وليدها بين أسنانها .

●

فكــرة شريـرة

لا أعــرف كـيف جـاءتنى هذه الفكرة الشـريرة ، ولـكننى عندما دلفت إلى سيارة الأجرة بوقار شديد ، وأمرت السائق - على غير عادتى - بتشغيل العداد ، لمحت فى عينيه نوعا من الخـوف ، وعلى وجـهـه أمـارات القلق ، عندئذ لمعت فى ذهنى الفكـرة الشــريرة ،، ووجدتنى ألمح فى حديثى - زورا أو بهـتـانـاً - بأننى ضـابط ، مع تعـمـد أن يبـدو حـديثى وتلميحاتى عفوية وتلقائيـة ، ومع استمرار الحديث الضرورى لطول المسافة من سيدى جابر إلى العـجـمى ، أصبح وجـه السـائق الذى يتـسم بالجـهـامــة والغلظة يلين لى فى تودد واضح ، وترتســم على وجهـه من آن لآخر ابتسامة متزلفة ، أو ضحكات مفتعلة على نكات تعمدت أن تكون سخيفة .

واستمتعت للغاية بوضع معكوس ونادر بالنسبة لأحاديثى مع سـائقى الأجـرة ، عـند الكلام فى الموضـوع المفـضل : الأوضاع الرديئة فى البلاد. وفى العادة عندئذ يخرج مخزون من الشـتـائم التى تنال من الحكومـة ، والتى لا تنتـهى إلا بنزولى من السيـارة ، وفـوجئت بسائقى ينفـعل مدافعـا عن الحكومة ، فمـاذا تفعل الحكومة وحدها ! . الناس لا يريدون أن يفـعلوا شـيـئـا لحل المشـاكل ، ويلقـون بكل اللوم على الحـكـومـة .

ولكننى اقتربت من مكان نزولى بالعجمى ، فألقيت نظرة سريعـة على العـداد ، الذى أشـار إلى أننى مـدين بما يجـاوز السبعة جنيهات لهذا السائق ، ولكننى انسياقا لفكرة شريرة أخـرى ، أخـرجت من جـيـبـى ثلاثة جنيـهـات .... وكـأن يدا فولاذية تعتصر قلبى عندما قبلها شاكرا ومبـتـسما .

●

فى المـــرآة

عندما تحركت السيارة ، أخرج أحد الركاب سيجارة ، وشرع فى إشعالها ، ولكن السائق أصدر أوامره بمنع التدخين ، مما أثار ضيق الجميع من الرجال ، ثم استكمالا لفرض هيمنته على السيارة ، وأيضا للقضاء على حالة التذمر ، قام بتشغيل شريط كاسيت عن عذاب القبر ، جعل الركاب فى حالة من التململ والقلق ، وأثار منع التدخين وشريط العذاب والجو الحار بالإضافة إلى جهامة وكآبة السائق حالة من الإحباط بين الركاب ، جعلتهم يستسلمون للنوم الواحد تلو الآخر ، ولا أعرف لماذا رفضت الهروب من القهر الذى فرضه السائق بالنوم ، وتغلبت فى نفسى الرغبة فى مقاومة هذا الجو الكئيب الذى أشاعه إمبراطور السيارة بكآبته وأوامره وشريط العذاب ، ظللت أتأمل فيمن حولى ، ثم حانت منى نظرة إلى

المرآه : كان وجهها الذى يشغل الجزء الأيمن من مرآة السائق الأمامية ، يذكرنى بروعة وجوه " رينوار " الملائكية ، ورحت أتأمل وجهها الجميل النائم ، الذى انتشلنى من كآبة جو السيارة : كانت يداها تمتد بحركة تلقائية ، بينما عيناها مغمضتان ، لتسوى أجزاء من شعرها الناعم المعقوص ، وبين الحين والحين تأتى انفراجة الرموش لتتفتح زهرة وجهها ، ثم تنغلق ثانية ، وأنا مستغرق فى تأمل جمال الملاك النائم . ولكنها استيقظت ، ثم استطاعت بعد قليل أن تلحظ نظراتى وتأملى لها عبر المرآة ، لتنفرج شفتاها عن ابتسامة رائعة ، رددت بمثلها ، وبين التأمل والابتسام ، امتدت يد السائق لتزيح وجهها عن سطح المرآة ، ليحتله وجهه هو بابتسامة صفراء رددت عليها بنظرة كارهة ، ثم ظللنا نتبادل نظرات الكراهية طوال الطريق .

●

الفهرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة
مهندس / إبراهيم السيد البهنساوى

رقم الإيداع بدار الكتب ١١١ / ١٩٩٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٠٠٠٩ - ١٩٩٤ - ١٠٠٠

«الصوت المعدنى» مجموعة من الأقاصيص القصار الشديدة القصر تقوم على طريقة واحدة للقص تبدأ بشئ أوموقف لتنتهى بعكسه والكاتب يدرك مقتضيات النوع الأدبى الذى يستخدمه وإن لم يفلت من مزالقه فى أحوال قليلة .

هذا النوع من القصص يحتاج إلى دقة شديدة فى اختيار الموقف أواللحظة التى يركز عليها ليشف أو يوحى بدلالة عميقة أوغير مألوفة .



طبع بالهيئة العامة لشئون المط

